الدرس الثاني عشر: بيان الأصل الثالث من أصول الدين

وهو معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم

عناصر الدرس:

١: بيان معنى شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- ما تستلزمه شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- معنى التصديق، وبيان ما ينقضه وينقصه.
- معنى الطاعة، وبيان ما ينقضها وينقصها.
- معنى المحبة، وبيان ما ينقضها وينقصها.

٢: نسب النبي صلى الله عليه وسلم.

٣: مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وبيان عمره يوم بعث ويوم هاجر ويوم توفي صلى الله عليه وسلم

٤: معنى قول المؤلف: (نبئ بإقرأ وأرسل بالمدثر).

٥: الفرق بين الرسول والنبي.

٦: بلد النبي صلى الله عليه وسلم ومهاجره، ودعوته التي دعا الناس إليها.

٧: تفسير صدر سورة المدثر.

٨: فرض الصلاة

❐ شرح قوله: (الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ. وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ، وَهَاشمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ العَرَبِ، وَالعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ،عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ.

وَلَهُ مِنَ العُمْرِ ثَلاَثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاَثٌ وَعِشْرُونَ نَبِياً رَسُولاً.

نُبِّئَ بِإِقْرَا، وَأُرْسِلَ بِالْمُدَّثِّرِ، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ.

بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلى التَّوْحِيدِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١- ٧].

وَمَعْنَى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلى التَّوْحِيدِ.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرُّجْزُ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا وَأَهْلِهَا، وَالبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا، وَعَدَاوَتُها وَأَهْلِهَا، وَفِرَاقُهَا وَأَهْلِهَا.

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاَثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالهِجْرَةِ إِلى المَدِينَةِ.

وَالهِجْرَةُ: الاِنْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلى بَلَدِ الإِسْلاَمِ، وَالهِجْرَةُ: فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلى بَلَدِ الإِسْلاَمِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾ [النساء: ٩٧- ٩٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قَالَ البَغَوِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- : (سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي المُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا؛ نَادَاهُمُ اللهُ باسْمِ الإِيمَانِ).

وَالدَّلِيلُ عَلَى الهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم: «لا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالمَدِينَةِ أُمِرَ فِيهَا بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ؛ مِثْلِ الزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالحَجِّ والأَذَانِ وَالجِهَادِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ،وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ.

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا تُوُفِّيَ- صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَدِينُهُ بَاقٍ.

وَهَذَا دِينُهُ، لاخَيْرَ إِلاَّ دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلاَّ حَذَّرَهَا عَنْهُ.

وَالخَيْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَ عَنْهُ: الشِّرْكُ وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ وَيَأبَاهُ.

بَعَثَهُ اللهُ إِلى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الجِنِّ وَالإِنْسِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وَأَكْمَلَ اللهُ لَهُ الدِّينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣].

وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠- ٣١].

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿واللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ [نوح: ١٧ - ١٨].

وَبَعْدَ البَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وَمَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العلمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين أما بعد:

فهذا هو الدرس الثاني عشر من دروس ثلاثة الأصول وأدلتها، أسأل الله عز وجل أن يختم أعمالنا بالصالحات، وأن يوفقنا للتوبة النصوح قبل الممات، وأن يبارك في أعمالنا وأعمارنا ، إنه هو العليم القدير، والعليم الحليم، لا إله إلا هو.

وهذا الدرس هو في بيان الأصل الثالث من أصول الدين، وهو معرفة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الأصل العظيم تندرج تحته أبواب ومسائل كثيرة من مسائل الاعتقاد، فلذلك ينبغي لطالب العلم أن يضبط معرفة هذا الأصل جيداً، حتى تتبيّن له كثير من المسائل المترتبة على هذه الأصل العظيم.

فشهادة أن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أصل من أصول الدين، لا يدخل عبدٌ في الإسلام حتى يشهد هذه الشهادة.

وهذه الشهادة العظيمة ينبني عليها منهج الإنسان وعمله، ونجاته وسعادته، إذ عليها مدار المتابعة، والله تعالى لا يقبل من عبد عملاً ما لم يكن خالصاً له جل وعلا، وعلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فالإخلاص هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله.

والمتابعة هي مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما كانت الأعمال لا بد فيها من قصد وطريقة تؤدى عليها عُدّت الشهادتان ركناً واحداً.

وشهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم تستلزم أموراً عظيمة يمكن إجمالها في ثلاثة أمور كبار من لم يقم بها لم يكن مؤمناً بالرسول صلى الله عليه وسلم:

الأمر الأول: تصديق خبره.

الأمر الثاني: امتثال أمره.

الأمر الثالث: محبته صلى الله عليه وسلم.

وما يعود على أحد هذه الأمور الثلاثة بالبطلان فهو ناقض لشهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإذا انتقضت هذه الشهادة انتقض إسلام العبد؛ فالإسلام لا بد فيها من إخلاص وانقياد ومن لم يشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة صحيحة لم يكن منقاداً ولا مسلماً، وإن ادعى الإسلام.

❖ **فأما الأمر الأول: وهو تصديق خبره** صلى الله عليه وسلم، فهو أصل عظيم من أصول الدين، **وهذا التصديق ينقضه أمران:**

▫ الأمر الأول: **التكذيب.**

▫ والأمر الثاني: **الشك.**

فكلٌ من المكذب والشاك غير مصدق ولا مؤمن بالرسول صلى الله عليه وسلم.

والتكذيب على درجتين:

الدرجة الأولى: التكذيب المطلق؛ فيدّعي أنه كذاب في أصل رسالته أي أن الله لم يرسله، أو يكذّبه فيما يخبر به عن الله جل وعلا وعن أمور الغيب، وهذا هو تكذيب المشركين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم وتكذيب بعض أصحاب الملل الأخرى كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم.

وكذلك المنافقون النفاق الأكبر الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ويضمرون العداوة لله ولرسوله وللمؤمنين فهؤلاء وإن شهدوا بألسنتهم أن محمداً رسول الله إلا أنهم كفار كاذبون كما قال الله تعالى فيهم: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾

فهم كاذبون في دعواهم أنهم يشهدون أن محمداً رسول الله، وإنما نطقوا بهذه الشهادة نفاقاً، ولو كانوا صادقين في شهادتهم له بالرسالة لقاموا بما يلزم من تصديق خبره وطاعة أمره ومحبته.

والمنافقون مخالفون لهذه الأمور ناقضون لها؛ فهم مبغضون للرسول صلى الله عليه وسلم ولما جاء به، وعاصون له، ومكذبون ومشكّكون في أخباره.

فهذه هي الدرجة الأولى من درجات التكذيب وهو التكذيب المطلق.

الدرجة الثانية: تكذيب بعض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا قد يقع من بعض من يقرّ برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ويكذبه في بعض أخباره، كإقرار بعض اليهود والنصارى بأنه رسول، لكن رسالته للعرب وليست لجميع الناس؛ وكتكذيب بعض من ينتسب للإسلام لبعض أخبار النبي صلى الله عليه وسلم مع إقراره بصحتها عنه؛ فمن كذّب النبي صلى الله عليه وسلم في شيء من أخباره فهو كافر بإجماع أهل العلم.

ولا ينفعه إقراره بأنه رسول الله ولا تصديقه له في بعض أخباره.

وكذلك المشكك في بعض أخبار النبي صلى الله عليه وسلم فهو كافر غير مصدق.

ولا يستقيم إسلام العبد حتى يصدّق الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما يخبر به.

وههنا مسألة مهمة:

وهي أنه يجب التفريق بين تكذيب خبر الرسول بعد الإقرار بصحته إليه، وبين تكذيب الخبر المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

فتكذيب الخبر المنسوب الذي لم تتحقق صحته عن النبي صلى الله عليه وسلم أو تأوّله المتأوّل على غير معناه الصحيح ليس له حكم تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم.

وذلك لأن الأخبار المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم قد تصح نسبتها وقد لا تصح، وإذا صحت النسبة فقد يصح تفسير المعنى على ما فهمه المتلقي وقد يفهم منه فهماً خاطئاً مخالفاً لنص صحيح صريح فيكذب الخبر بناء على ما صح عنده من مخالفته للنص المحكم الصحيح؛ فهذا ليس بتكذيب للنبي صلى الله عليه وسلم في حقيقة الأمر.

ولذلك قد يكون لبعض الناس عذر في تكذيب بعض ما يبلغهم من الأخبار الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم يمنع من تكفيرهم؛ إما بسبب جهلهم بصحة نسبته للنبي صلى الله عليه وسلم، وإما بسبب عدم فهمهم لمعناه على الوجه الصحيح وإما لشبهة أخرى عرضت لهم، وغالب ما يمنع تكفير أصحاب البدع هو هذه الشُبَه المانعة من التكفير.

➢ أما من أقرّ بصحة نسبة الخبر الصحيح للنبي صلى الله عليه وسلم، وأقر بمعرفته لمعناه الصحيح ثم كذّبه بعد ذلك فلا شك في كفره.

فهذه مسألة مهمة ينبغي أن يتفطن لها طالب العلم، ويضبطها جيداً.

ولو تأملتم كثيراً من المسائل التي يذكرها العلماء في نواقض الإسلام لوجدتموها راجعة إلى هذا الأصل، وهو أنها تقتضي تكذيب خبر النبي صلى الله عليه وسلم.

❖ **أما الأمر الثاني: فهو طاعة الرسول** صلى الله عليه وسلم، وذلك يكون بامتثال أمره واجتناب نهيه.

لأن العبد قد يصدّق ولا يطيع، فإذا صدق وأطاع فقد أدى هذين الأمرين.

والواجب على العبد حتى يحقق شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطيعه في كل ما يأمر به ما استطاع، وأن يجتنب ما نهاه عنه الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فرض واجب، وهي طاعة لله جل وعلا كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾

وقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾

وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ذروني ما تركتكم؛ فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، ما نهيتكم عنه فانتهوا، وما أمرتكم فأتوا منه ما استطعتم».

- ولفظ طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه إذا أطلق في النصوص يشمل امتثال أمره واجتناب نهيه وتصديقه ومحبته لأن الاتباع الصحيح لا يتحقق إلا بهذه الأمور.

والمخالفون في هذا الأمر على درجتين:

الدرجة الأولى: الذين لا يرون أنه يلزمهم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فهؤلاء كفار غير مسلمين، وإن أقرّوا بصحة رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، فكل من لم ير طاعة الرسول واجبة عليه لازمة له فهو كافر غير مسلم؛ لأنه ممتنع عن الطاعة متولٍّ غير منقاد لحكم الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

ومن هؤلاء من يظهر الطاعة ويبيّن الامتحان حقيقته ولا يأتي من أمر الرسول إلا بما يوافق هواه ورغبته وهذا من شأن المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ﴾

فلا يستقيم إيمان عبد حتى يسمع ويطيع.

الدرجة الثانية: الذين يؤمنون بأنه يلزمهم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في كبير الأمور وصغيرها وأن ما أوجبه عليهم فهو واجب، وما حرّمه عليهم فهو حرام، ويلتزمون ذلك، لكنهم يخالفون في بعض الأمر فيرتكبون بعض المحرمات ويتركون بعض الواجبات مع إقرارهم بعصيانهم فهؤلاء من عصاة المسلمين، وهم آثمون مستحقون للعذاب بقدر ما عصوا الرسول فيه، ولا يكفرون إلا إذا أفضت معصيتهم إلى ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام، والعياذ بالله.

- وقد ضلت طوائف من أهل البدع في هذا الباب فكفَّروا مرتكب الكبيرة كما فعلت الخوارج وقالوا بأن أهل الكبائر خالدون مخلدون في نار جهنم.

- ومن أهل البدع من قال هم في منزلة بين المنزلتين فليسوا بمسلمين ولا كفار وهم يوم القيامة خالدون في نار جهنم، وهذا قول المعتزلة.

وكلا الطائفتين يسميهم أهل السنة الوعيدية.

وهؤلاء ينكرون شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر وشفاعة الشافعين الذين يأذن الله بشفاعتهم يوم القيامة كشفاعة الشهداء والصالحين وكشفاعة الأطفال لأهليهم وغيرهم ممن صح الخبر عن النبي صلى الله عليهم وسلم بأنهم يشفعون لبعض من استحق النار من المسلمين بسبب عصيانه ومنهم من يدخلها ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين.

- وأهل السنة والجماعة لا يكفرون أصحاب الكبائر من المسلمين، بل يقولون: هم من عصاة المسلمين، وهم على خطر من عصيانهم، وترجى لهم الرحمة والمغفرة وتنفعهم دعوات المسلمين وصدقاتهم وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعة الشافعين فمنهم من تدركه الشفاعة قبل العذاب فينجو ويسلم، ومنهم من يعذب ما شاء الله أن يعذب ثم ينجو بعد ذلك، ولا يخلد في النار إلا كافر.

هذا تلخيص لأهم المسائل المتعلقة بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وأحكام العصاة.

❖ **الأمر الثالث: محبة الرسول صلى الله عليه وسلم.**

ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم فرض واجب، لا يصح الإيمان إلا به

بل يجب تقديم محبته صلى الله عليه وسلم على محبة النفس والأهل والولد والمال

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

وفي رواية لمسلم: «لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين».

وفي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي صلى الله عليه و سلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب؛ فقال له عمر: (يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي).

فقال النبي صلى الله عليه و سلم: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك».

فقال له عمر: (فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي).

فقال النبي صلى الله عليه و سلم: «الآن يا عمر».

وهذا المعنى يشهد له قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾

قال ابن جرير: (﴿النَّبِيُّ﴾ محمد ﴿أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: أحق بالمؤمنين به ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أن يحكم فيهم بما يشاء من حكم، فيجوز ذلك عليهم).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾

- وتقديم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على محبة النفس والأهل والولد والناس أجمعين على ثلاثة درجات، وهي درجات الاتباع:

الدرجة الأولى: وهي التي لا يصح الإسلام إلا بها وهي تقديم محبته فيما يلزم منه البقاء على دين الإسلام، والمخالف في هذه الدرجة هم الكفار الأصليون والمرتدّون الذين ارتكبوا ناقضاً من نواقض الإسلام فقدّموا ما يحبونه من معصية الرسول صلى الله عليه وسلم على محبة الرسول؛ فخرجوا من دين الإسلام بهذه المخالفة.

فهذه الدرجة المخلف فيها كافر خارج عن دين الإسلام.

الدرجة الثانية: درجة الوجوب، فيطيع الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به أمر وجوب، ويجتنب ما نهى عنه نهي تحريم، والذين يؤدي هذه الدرجة هو مؤمن مؤدٍّ للطاعة الواجبة، والمخالف فيها هو الذي يقدم ما تحبه نفسه وتهواه على طاعة الرسول عاص مخالف للأمر مستحق للعقاب بقدر مخالفته.

الدرجة الثالثة: درجة الاستحباب والكمال، وهو طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به أمر وجوب أو استحباب على ما يستطيع العبد، واجتناب ما ينهى عنه نهي تحريم وكراهة، وهذه الدرجة من حقّقها فهو من أهل الإحسان.

ومن خالف فيها بما لا يلحقه بالمخالفين في الدرجة الثانية فهو غير آثم، لكن يفوته من الخير والفضل بقدر ما فرّط فيه.

فتبيّن أن تقديم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على محبة النفس والأهل والولد والناس أجمعين على هذه الدرجات الثلاث منها ما لا يصح الإسلام إلا به، ومنها ما هو واجب ومنها ما هو كمال مستحب.

ويكون معنى نفي الإيمان في قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه...» **على ثلاث درجات:**

١: **نفي أصل الإيمان**، وهذا للمخالفين في الدرجة الأولى.

٢: **نفي الإيمان الواجب**، وهذا للمخالفين في الدرجة الثانية.

٣: نفي كمال الإيمان، وهذا للمخالفين في الدرجة الثالثة.

- ومما يتصل بهذه المسألة وهي محبة الرسول صلى الله عليه وسلم أن لها لوازم من لم يأت بها لم تكن محبته صادقة:

وهذه اللوازم هي: طاعة الرسول ونصرته ومحبة أصحابه وموالاتهم ومحبة دعوة الرسول ونصرتها ويجمع ذلك كله النصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم

كما في الصحيحين من حديث تميم الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدين النصيحة»

قلنا: لمن؟

قال: «لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

يقال: نصح فلاناً، ونصح له.

نصحه إذا وصّاه بما ينفعه وحذّره مما يضره، وهذا ليس بمراد هنا.

ونصح له، إذا صدق في محبته له وبذل ما يحبه المنصوح له بصدق وإخلاص بلا غش ولا خديعة ولا كذب ولا تقصير.

فالناصح هو الذي يجمع معنى الصدق والإخلاص، وضده الغاشّ والمكاشح.

فالغاشّ هو الذي يظهر الموافقة والموالاة ويبطن المخالفة والمعاداة.

والمكاشح والكاشح هو الذي يظهر العداوة ويبديها.

- والنصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم واجبة وهي تستلزم الصدق والإخلاص في المحبة والطاعة والنصرة والتصديق.

ومن قصر في واجب من هذه الواجبات فهو مقصّر في النصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم.

وإثمه على حسب تقصيره، كما تقدم شرحه في درجات مخالفة الاتباع.

فنصيحة المسلم للرسول صلى الله عليه وسلم تكون بحسب اتباعه له؛ فكلما كان أكثر اتباعاً كان أكثر نصحاً.

- ومما ينقض هذه المحبة: البغض والإيذاء والسب والاستهزاء.

ومن وقع في هذه الأمور التي تستلزم عدم محبة النبي صلى الله عليه وسلم فهو كافر بإجماع العلماء.

❖ **والناس في محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: الجفاة المقصِّرون في محبة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء على درجتين: كفار، وعصاة؛

• فأما الكفار فهم الذين يبغضون الرسول صلى الله عليه وسلم أو يبغضون شيئاً مما جاء به من شريعة الإسلام.

• وأما العصاة فهم الذين يخالفون أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فيرتكبون بعض المحرمات ويتركون بعض الواجبات، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

القسم الثاني: الغلاة الذين غلوا في دعوى محبة النبي صلى الله عليه وسلم **وهؤلاء على درجتين:** مشركون ومبتدعة:

- فأما **المشركون** فهم الذين غلوا في النبي صلى الله عليه وسلم حتى صرفوا له بعض أنواع العبادة من الدعاء والنذر وطلب المدد وقضاء الحوائج وغير ذلك.
- وأما **المبتدعة** فهم الذين غلوا في مدحه فأطروه وجاوزوا الحد المأذون فيه من المدح والثناء، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله) رواه البخاري من حديث عمر بن الخطاب، ومن الغلو ما يفعله بعض الصوفية من بدعة الموالد النبوية وغيرها من مظاهر الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم.

القسم الثالث: المهتدون المتبعون لهدي النبي صلى الله عليه وسلم وهدي أصحابه الكرام والتابعين لهم بإحسان بلا غلو ولا تفريط، وهؤلاء هم الناجون السعداء.

- بعض العلماء يضيف في مقتضيات شهادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأن لا يعبد الله إلا بما شرع).

وهذا يندرج تحت طاعته صلى الله عليه وسلم، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.

فابتداع شيء من العبادات محرم لا يجوز، والمبتدع عاص ببدعته.

والبدع لها تقسيمات مهمة ينبغي لطالب العلم أن يضبطها، منها أنها **تنقسم بحسب حكمها إلى قسمين**: بدع مكفرة، وبدع مفسقة.

– **فأما البدع المكفرة** فهي التي يكون فيها ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام كأن تتضمن تلك البدعة شركاً أكبر بصرف العبادة لغير الله عز وجل كما يفعله بعض غلاة الشيعة والباطنية والصوفية.

أو يكون فيها تكذيب لخبر الله عز وجل وخبر رسوله وادعاء ما يخالف دين الإسلام بالضرورة كدعوى بعض فرق الشيعة أن القرآن ناقص محرّف، ودعوى بعض غلاة الصوفية أن أقطابهم يعلمون الغيب ويطلعون على اللوح المحفوظ، ودعوى الجهمية نفي أسماء الله عز وجل وصفاته.

وضابط البدع المكفّرة أنها هي التي يلزم منها ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام.

– **القسم الثاني: البدع المفسّقة**، وهي التي لا يكون فيها ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام من الشرك الأكبر أو التكذيب أو غيرها من النواقض.

وهذه غالب البدع العملية من مثل ما يحدثه بعض المبتدعة من الموالد والأذكار المبتدعة والزيادة على القدر المشروع في بعض العبادات، وتخصيص بعض الأزمنة والأمكنة بعبادات لم يرد تخصيصها بها.

هذا تلخيص موجز لما تقتضيه شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهي مسائل كبار من مسائل أصول الدين ينبغي لطالب العلم أن يفقهها جيداً.

❐ قوله: (الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ).

أي الأصل الثالث من أصول الدين وهو معرفة النبي صلى الله عليه وسلم.

وأتى به مضافاً إلى المخاطبين (نبيكم) لإشعارهم بأن هذا الأمر يخصهم ويتصل بهم فهو نبيهم ورسولهم الذي أرسل إليهم، فيجب عليهم أن يعتنوا بمعرفته وأداء حقه.

وباب الإضافة عند العرب واسع فهي تضيف لأدنى ملابسة، ولا عتبارات متعددة.

فالرسول صلى الله عليه وسلم، هو رسول الله، باعتبار المرسِل وهو الله تعالى كما قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وقال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾

وهو رسولنا لأنه أرسل إلينا كما قال تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾

وهو نبي الله باعتبار المنبّئ الذي نبَّأه وهو الله تعالى.

وهو نبينا باعتبار أنه منبَّأٌ إلينا.

ويضاف أيضاً إلى بعض أوصافه وما أتى به فيقال: نبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة.

والمعرفة المرادة هنا هي المعرفة المحمودة كما سبق بيانه.

❐ قوله: (وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ العَرَبِ، وَالعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ، عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ).

عبد المطلب اسمه شيبة، وعبد المطلب لَقَبٌ لُقِّبَ به، لأنَّ عمَّه المطَّلب أردفه خلفه لما أتى به من عند أخواله بني النجار في يثرب وقد تغيَّر لونه من السفر فظنوه عبداً له فقيل عبد المطلب.

وهاشم لقب أيضاً، واسمه عمرو، ويقال له: عمرو العُلا، ولُقِّبَ بهاشم لِهَشْمِه الثريد لقومه من كَرَمه، وقيل فيه:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ... قومٍ بمكة مسنتين عجاف

وهذا البيت نسب لعبد الله بن الزبعرى من قصيدة له قال فيها:

كانت قريش بيضةً فتفقأت ... فالمح خالصه لعبد مناف

الخالطين فقيرهم بغنيهم ... والظاعنين لرحلة الأصياف

والرائشين وليس يوجد رائش ... والقائلين هَلُمّ للأضياف

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ... قوم بمكة مسنتين عجاف

ونسب البيت السابق لغيره.

والمسنتون الذي أصابتهم سَنَةٌ أي مجاعة.

وقريش لقب للنضر بن كنانة، وقيل لقب لفهر بن مالك.

والأول أصح لما رواه الإمام أحمد وأبو داوود الطيالسي وابن أبي شيبة وغيرهم من حديث مسلم بن هيضم عن الأشعث بن قيس الكندي رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه و سلم في وفد لا يرون إلا أني أفضلهم؛ فقلت: (يا رسول الله إنا نزعم أنكم منا)

قال: «نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمَّنا ولا ننتفي من أبينا»

قال: فكان الأشعث يقول: (لا أوتى برجل نفى قريشاً من النضر بن كنانة إلا جلدته الحدَّ).

والحديث صححه الألباني.

وقد ذكر الزهري فيما رواه عبد الرزاق وغيره أنه كان بين بني عبد مناف وبني آكل المرار من كندة خلطة في الجاهلية أي: تناسب.

واختلف في سبب تلقيب النضر بقريش على أقوال كثيرة، لم أقف منها على قول تطمئن النفس لصحته.

ونسب النبي صلى الله عليه وسلم إلى عدنان متفق عليه عند أهل العلم بالحديث والأنساب.

قال البخاري في صحيحه في كتاب المناقب: (باب مبعث النبي صلى الله عليه وسلم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن

لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان).

قال ابن القيم: (إلى هاهنا معلوم الصحة، متفق عليه بين النسابين، ولا خِلاف فيه البتة، وما فوق "عدنان" مختلف فيه. ولا خلاف بينهم أن "عدنان" من ولد إسماعيل عليه السلام).

وما بعد عدنان للنسابين فيه أقوال مختلفة لم أقف على حجة صحيحة لقول منها.

قال عروة بن الزبير: (ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معدّ بن عدنان). رواه ابن وهب وابن سعد وابن أبي حاتم وغيرهم.

وقال أبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة وهو من علماء التابعين ومن أهل العلم بالأنساب والأشعار: (ما وجدنا في علم عالم ولا في شعر شاعر أحداً يعرف ما وراء معدّ بن عدنان بثبت). رواه ابن سعد وابن وهب وغيرهما.

وأما ما أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه و سلم كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معد بن عدنان بن أدد ثم يمسك ويقول: (كذب النسابون قال الله عز و جل ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾).

فهذا خبر موضوع، لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

لكن صح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ: ﴿وعاداً وثمود وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ ثم يقول: (كذب النسابون). رواه ابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم.

هكذا في قراءة ابن مسعود.

وقال السيوطي في الدر المنثور: (وأخرج ابن الضريس عن أبي مجلز قال: قال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنا أنسب الناس.

قال: إنك لا تنسب الناس.

قال: بلى.

فقال له علي رضي الله عنه: أرأيت قوله تعالى: ﴿وعاداً وثموداً وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾؟

قال: أنا أنسب ذلك الكثير.

قال: أرأيت قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قوم نوح وعاد وثمود وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾؟ فسكت).

ولم أقف على إسناده عند ابن الضُّرَيس.

وأبو مجلز هو لاحق بن حميد السدوسي، من قراء التابعين وفضلائهم.

❐ قوله: **(وَلَهُ مِنَ العُمْرِ ثَلاَثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاَثٌ وَعِشْرُونَ نَبِياً رَسُولاً)**.

هذا دليله ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين؛ فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة، ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة؛ فمكث بها عشر سنين، ثم توفي صلى الله عليه وسلم).

فيكون مدة نبوته ثلاث وعشرون سنة.

وعمره ثلاث وستون.

❐ قوله: **(نُبِّئَ بِإِقْرَا، وَأُرْسِلَ بِالْمُدَّثِّرِ)**.

النبوَّة منزلة يختص الله بها من يشاء من عباده؛ فيوحي إليهم من أمره ما يشاء، وقد ختمت النبوة بنبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء؛ كلما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ، وإنه لا نبيَّ بعدي، وسيكون خلفاء فيكثُرون».

قالوا: فما تأمرنا؟

قال: «أوفوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم؛ فإن الله سائلهم عما استرعاهم».

وقد أجمع أهل العلم على ختم النبوة والرسالة بمحمد صلى الله عليه وسلم وأنه لا نبي بعده ولا رسول.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي ومستدرك الحاكم وغيرها من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي».

قال: فشقَّ ذلك على الناس.

قال: قال: «ولكن المبشرات».

قالوا: يا رسول الله وما المبشرات؟

قال: «رؤيا الرجل المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة».

والحديث صححه الألباني.

فكل من ادَّعى النبوة أو الرسالة بعد النبي صلى الله عليه وسلم فهو كذاب.

قوله: **(نُبِّئَ بِإِقْرَأ)** أي كان مبدأ نبوته عليه السلام لما نزل عليه أول سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾.

وخبر بدء الوحي رواه البخاري في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها.

وما كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم من الرؤى الصادقة قبل الوحي هو من إرهاصات النبوة والتهيئة لها.

وبدأت النبوة ببدء الوحي لما نزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء بأول سورة العلق.

ثم فتر الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك، **واختلف في مدة فترة الوحي على أقوال:**

– **فقال الشعبي**: كانت مدة فترة الوحي سنتان ونصف، رواه عنه الإمام أحمد في التاريخ كما في فتح الباري لابن حجر، وهو قول بعيد.

– **وروى ابن سعد عن ابن عباس** أنها كانت أياماً، لكن إسناد هذه الرواية واهٍ جداً.

والله أعلم بمدة تلك الفترة، لكن صح أن أوّل ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد فترة الوحي أول سورة المدثر.

في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «بينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري؛ فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ففَرَقْتُ منه فرجعت فقلت زملوني زملوني؛ فدثروني؛ فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾».

وهي الأوثان

قال: ثم تتابع الوحي).

الذي قال في تفسير الرُّجز: (وهي الأوثان) هو أبو سلمة بن عبد الرحمن كما في رواية عند البخاري: قال: (وهي الأوثان التي كان أهل الجاهلية يعبدون).

وفي رواية في صحيح البخاري أيضاً أن هذه الحادثة كانت قبل أن تفرض الصلاة.

❐ قوله: (**وَأُرْسِلَ بِالْمُدَّثِّرِ**) يريد أن نزول صدر سورة المدثر كان بداية الرسالة، لما تضمنته من الأمر بالنذارة.

وهذا الاستنباط قد قال به جماعة من أهل العلم.

قال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية لما ذكر أن أول ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم سورة اقرأ ثم سورة المدثر قال: (وبهذا حصل الإرسال إلى الناس، وبالأول حصلت النبوة).

وقال نحو هذا القول الحليمي شيخ البيهقي، وابن تيمية في منهاج السنة النبوية.

- والتفريق بين الرسول والنبي من المسائل التي كثرت فيها أقوال أهل العلم وحصل فيها لبس واشتباه، وفيها مواضع متفق عليها.

⇦ وتلخيص ذلك أن **الفرق بين الرسول والنبي يتضح ببيان أمرين:**

الأمر الأول: أن النبوة منزلة، والرسالة منزلة أخص منها، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسول، وهذا الأمر عليه قول جماهير العلماء ولا أعرف إماماً معروفاً بالعلم والإمامة في الدين يخالف في هذا القول.

وقد نقل عن بعض المعتزلة أنه لا فرق بين الرسول والنبي، وقال به بعض من اشتبه عليه الأمر من أهل السنة، فإنهم زعموا أن لا فرق بين الرسول والنبي فكل رسول نبي وكل نبي رسول، وهذا الزعم باطل؛ فإن الفرق بين الرسول والنبي متحقق لدلالة قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ... ﴾ الآية

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ﴾

وقوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ﴾

وقوله تعالى عن بعض أنبيائه: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾

ولما في الصحيحين من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل "اللهم إني أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذى أرسلت.

فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به».

قال البراء بن عازب: فرددتها على النبي صلى الله عليه وسلم فلما بلغت "اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت" قلت: "ورسولك"، قال: «لا، ونبيك الذي أرسلت».

ولدلالة حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين في حديث الشفاعة الطويل وفيه أن الناس يأتون نوحاً فيقولون له: (أنت نوح أول الرسل إلى أهل الأرض). وقد علم بنص الحديث أن آدم عليه السلام نبي مكلم.

الأمر الثاني: بيان الفرق بين مطلق الإرسال ومنزلة الرسالة؛ فمطلق الإرسال حاصل للأنبياء كلهم كما دل عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

فالرسول مرسل، والنبي مرسل، لكن رسالة الرسول أخص من رسالة النبي ومنزلة الرسالة أخص وأعلى من منزلة النبوة ولذلك قدم ذكر الرسول على ذكر النبي في هذه الآية.

ويدل على ثبوت قدر من الإرسال للأنبياء ما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، و ينذرهم شر ما يعلمه لهم».

فهذا حق واجب على جميع الأنبياء لم يستثن منه أحد منهم.

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن الناس يأتون نوحاً فيقولون له: (يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض) فعلم بذلك أن نوحاً عليه السلام أول الرسل.

ونبوة آدم عليه السلام ثابتة، بل هو نبي مكلَّم كما في حديث أبي ذر وأبي أمامة في المسند والمستدرك وغيرهما، وتكليم الله تعالى لآدم ثابت بنص القرآن، ولا بد له ولمن معه من شرع يتعبدون الله تعالى به كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

واتباع الهدى هو امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، وهو معنى الشريعة.

وهذا يقتضي أنه أمر بتبليغ ذلك الهدى زوجه وذريته، ومع ذلك فهو نبي مكلم وليس برسول لدلالة حديث أبي هريرة.

ونظير هذه المسألة مسألة الإيمان والإسلام؛ فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم بمؤمن، ولا بد في الإسلام من قدر من الإيمان يصح به، وإلا فلو انتفى الإيمان جملة عن العبد لانتفى عنه الإسلام جملة.

والمقصود أن الرسالة منزلة أخص من منزلة النبوة وأعلى منها، كما أن الرسل أيضاً على منازل متفاضلة بعضهم أفضل من بعض كما قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾

وأفضل الرسل أولوا العزم الخمسة المذكورون في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

وأفضل الخمسة الخليلان محمد وإبراهيم عليهما السلام.

وأفضل الخليلين نبينا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

⇇ من أهل العلم من يقول: إن الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه ولم يؤمر بالتبليغ.

وهذا القول اشتهر عند أهل العلم وفي نشأته والتعبير عنه بهذا التعبير لبس ينبغي توضيحه حتى يتضح الأمر لطالب العلم.

وأول من نسب إليه هذا القول بهذا التعبير فيما أعلم أبو سليمان الخطابي (٣٨٨هـ) رحمه الله

ونص كلامه في كتابه أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري: (والفرق بين النبي والرسول أن النبيَّ هو المنبَّأُ –فعيل بمعنى مُفعَل– والرسول هو المأمور بتبليغ ما نُبِّئَ وأُخبر به؛ فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا).

وهذا القول اختصره ابن الأثير في جامع الأصول فقال: (قال الخطابي: والفرق بين النبي والرسول: أن الرسول هو المأمور بتبليغ ما أنبئ وأخبر به، والنبي هو المخبَر ولم يؤمر بالتبليغ، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا).

فأضاف كلمة (ولم يؤمر بالتبليغ) من باب التوضيح لما فهمه، واشتهر هذا التعريف لدى المتأخرين لشهرة الكتاب، ولنسبة هذا القول لأبي سليمان الخطابي رحمه الله وهو من أجلّ شراح الأحاديث.

وقد قال بنحو هذه الإضافة البيهقي (ت:٤٥٨هـ) رحمه الله فقال: (والنبوة اسم مشتق من النبأ و هو الخبر إلا أنّ المراد به في هذا الموضع خبر خاص، وهو الذي يكرم الله عز وجل به أحدا من عباده فيميزه عن غيره بإلقائه إليه، ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي ووعظ وإرشاد ووعد ووعيد؛ فتكون النبوة على هذا الخبر والمعرفة بالمخبرات الموصوفة فالنبي صلى الله عليه وسلم هو المخبر بها؛ فإن انضاف إلى هذا التوقيف أمرٌ بتبليغه الناس ودعائهم إليه كان نبيا ورسولا.

و إن ألقي إليه ليعمل به في خاصته و لم يؤمر بتبليغه و الدعاء إليه كان نبيا و لم يكن رسولا؛ فكل رسول نبي و ليس كل نبي رسولا).

وهذا القول في أصله مأثور عن مجاهد بن جبر فيما رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما ذكره السيوطي في الدر المنثور، وهو موجود في التفسير المطبوع باسم تفسير مجاهد، وهو الذي يرويه عبد الرحمن بن الحسن الهمذاني وجادة عن إبراهيم بن ديزيل الحافظ أنبأنا آدم بن أبي إياس، قال أنبأنا ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿رسولاً نبياً﴾ قال: (النبي هو الذي يُكَلَّم ويُنْزَلُ عليه ولا يُرْسَلُ، والرسولُ هو الذي يُرسَل).

وقال الفراء: (فالرسول النبيّ المرسل، والنبي: المحدَّث الذى لم يُرسَل).

وقال ابن جرير في آية الحج: (فتأويل الكلام: ولم يرسل يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم، ولا نبيّ محدث ليس بمرسل).

فهذا أصل هذا القول، لكن قول من قال (ولم يؤمر بتبليغه) كان هو منشأ الإشكال، ومع ذلك احتمله الجمهور إذ كان الأصلان السابقان متقررين.

ومن أهل العلم من رد هذا التعبير إذ فهموا من قولهم: (لم يؤمر بالتبليغ) النفي المطلق وفرَّع بعضهم عليه لوازم باطلة ليست مرادة لأصحاب هذا القول.

وهذا الأمر مما ينبغي لطالب العلم التفطن له، وله نظائر في المسائل العلمية، وهو أن أقوال أهل العلم التي يذكرونها لتوضيح بعض المسائل أو التعبير عن بعض الأقوال بعبارات جامعة مما يقع فيه الاجتهاد لإصابة المعنى المراد ثم قد يكون في تعبيرهم عموم غير مراد إذ ألفاظ العلماء ليست كألفاظ الوحي.

وطالب التحقيق في هذه المسائل ينبغي له النظر في أصول الأقوال ونشأتها وعبارة العلماء عنها ليضع الأقوال مواضعها، فإن الغالب عليهم أنهم إنما يترجمون عن معان مقررة بعبارات تبينها وتوضح المراد منها حسب اجتهادهم، ويقع في تلك الألفاظ ما لهم فيه مراد وقد يفهمه بعضهم على غير مرادهم.

فلا ينبغي لطالب العلم أن يحمله الخطأ في التعبير عن القول – إن وجد – على رده جملة.

فانظر الفرق بين كلام مجاهد والفراء والطبري والخطابي وكلام ابن الأثير والبيهقي ومن تبعهم.

بل انظر الفرق بين كلام البيهقي وما اشتهر لدى أهل العلم أن الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه.

فقول البيهقي: (ليعمل به في خاصته) دليل على وجود قدر من التبليغ يؤمر به النبي

فبذلك تعلم أن مرادهم هو مراد من تقدم لكنهم أرادوا تفسير لفظ الإرسال بما يبينه لئلا يكرر اللفظ، والتبليغ هو مقتضى الإرسال كما قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾؛ ففسروا اللفظ بمقتضاه.

وقال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)﴾

فقال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ فذكره بوصف النبوة، ثم قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ وهم الأنبياء بلا خلاف، ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ فالتبليغ من واجبات النبوة.

فقول هؤلاء العلماء: (وأمر بتبليغه) هو معنى قول من تقدم (وأرسل) لأن الأمر بالتبليغ هو مقتضى الإرسال.

فليس المراد من قولهم: (ولم يؤمر بتبليغه) نفي مطلق الإرسال والتبليغ، وإنما المراد نفي مقتضى ما تختص به منزلة الرسالة عن منزلة النبوة.

فإن منزلة الرسالة تقتضي تميز (الرسول) برسالة لا يشترك معه فيها (النبي)، وهذا هو القدر المنفي عن النبي في قول العلماء، ولم يريدوا نفي الإرسال عنه جملة.

ولأهل العلم في التفريق بين الرسول والنبي أقوال، أشهرها خمسة أقوال:

القول الأول: هو المتقدم ذكره، وهو أشهر الأقوال، وقد بيّنت ما فيه من الإشكال وجوابه.

القول الثاني: أن الرسول هو الذي يأتيه جبرئيل بالوحي عياناً وشفاهاً، والنبي هو الذي تكون نبوّته إلهاماً أو مناماً.

وهذا قول الثعلبي في تفسيره، وتبعه الواحدي والبغوي والخازن، وحكاه الماوردي في تفسيره قولاً، ولم يعزه لأحد، وكذلك فعل أبو المظفر السمعاني.

وقد اعتمده كثير من الشيعة.

وهذا القول في التفريق لا يصح فإن النبي صلى الله عليه وسلم إنما نبئ بنزول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

وأما قول عائشة رضي الله عنها في الصحيحين: (كان أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح).

فالمراد به مقدمات النبوة، لا النبوة نفسها.

فإن بدء النبوة كان بنزول قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

قال النووي نقلاً عن القاضي عياض وغيره من العلماء: (إنما ابتدئ صلى الله عليه وسلم بالرؤيا لئلا يفجأه الملك ويأتيه صريح النبوة بغتة فلا تحتملها قواه البشرية).

وبنحوه قال غير واحد من أهل العلم رحمهم الله تعالى.

القول الثالث: أن الرسول من أنزل معه كتاب، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله، وهذا قول الزمخشري في تفسيره، واختاره النسفي.

القول الرابع: الرسول من أرسل إلى قوم مخالفين ليبلغهم رسالة الله، والنبي من كان يعمل بشريعة من قبله، ولم يرسل إلى أحد ليبلغه رسالة الله، وهذا قول شيخ الإسلام ابن تيمية، نص عليه في رسالة النبوات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول).

وكلام شيخ الإسلام يشكل عليه نبوة آدم عليه السلام، وكذلك اشتراط المخالفة في الرسالة إذ لا أعلم عليه دليلاً، وإن كان دليله استقراء أحوال الرسل والأنبياء على ما ذكر في النصوص، فيقال: قد دل النص على أن لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن، والعداوة تقتضي المخالفة وتدل عليها باللزوم، وكذلك المقاتلة كما في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾

لكن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ..... ﴾ أصرح في الدلالة لشمولها جميع الأنبياء.

القول الخامس: الرسول من أوحي إليه بشريعة جديدة يدعو الناس إليها، والنبي من بعث لتقرير شرع سابق.

وهذا القول ذكره عبد القاهر بن طاهر البغدادي حكاية عن اعتقاد الأشاعرة، واختاره البيضاوي وأبو السعود، وقد حكاه قولاً أبو المظفر السمعاني وأبو حيان.

لكن البغدادي ذكر أن آدم عليه السلام هو أول الرسل.

والبيضاوي أيضاً خالف هذا القول في موضع آخر من تفسيره كما نبّه إليه العاملي في الكشكول.

قال البيضاوي في تفسير سورة مريم في شأن إسماعيل عليه السلام: (﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ يدل على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب شريعة، فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته).

هذه الأقوال الخمسة هي أشهر الأقوال في هذه المسألة، وفيها أقوال أخرى غير مشتهرة.

والقول الصحيح هو القول المأثور عن مجاهد رحمه الله، وهو ما قاله الفراء وابن جرير وعليه جمهور أهل العلم لولا ما أثير من الإشكال حول ذلك التعبير الشائع، وقد علمت جوابه.

❐ قوله: (وَبَلَدُهُ مَكَّةُ).

أي أن بلده الذي نشأ فيه مكة، وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم، وهي أم القرى والبلد الأمين الذي أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ وقال: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ❖ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾

المقصود بهذا البلد مكة بإجماع المفسرين.

وقد ورد من حديث ابن عمر وحديث أبي هريرة وحديث عبد الله بن عدي رضي الله عنهم أنها أحب البلاد إلى الله.

❐ قوله: (بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلى التَّوْحِيدِ).

النذارة بكسر النون: الإنذار، وهي ضد البشارة، وأعظم ما أنذر عنه النبي صلى الله عليه وسلم الشرك.

وأعظم ما دعا إليه التوحيد.

❐ قوله: (بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلى التَّوْحِيدِ)، بهذا الإطلاق له وجه صحيح، وهو أن الطاعات كلها مردها إلى التوحيد، والتوحيد يكون بالقلب واللسان والجوارح.

والمعاصي كلها من جنس الشرك، وقد يكون الشرك أكبر، وقد يكون أصغر، وقد يكون من باب إشراك النفس والهوى بإيثار ما تحبه على ما يحبه الله عز وجل، فيكون في ذلك نوع تشريك.

❐ قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾ [المدثر: ١- ٧]).

هذه الآيات هي أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد فترة الوحي الأولى، كما تقدم بيانه.

والمدَّثر: أصله: (المتدثّر) ثم أدغمت التاء في الدال وشدِّدَت.

والمدثر هو المتغطي بالدِّثَار وهو لباس يكون فوق الشعار؛ فالشعار هو اللباس الذي يلي الجسد، والدّثار لباس فوقه.

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الأنصار شعار والناس دثار» متفق عليه من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه.

قال الفراء وأبو معمر وابن قتيبة وابن جرير وغيرهم: المدثر هو المتدثر بثيابه إذا نام.

وقال إبراهيم النخعي: كان متدثراً بقطيفة.

❐ قوله: (وَمَعْنَى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ).

قال ابن جرير: (وقوله: (قُمْ فَأَنْذِرْ) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قم من نومك فأنذر عذابَ الله قومك الذين أشركوا بالله، وعبدوا غيره).

والإنذار يكون من العذاب وسببه؛ فالشرك سبب للعذاب، والنار وما يعاقب الله به المشكرين عذاب، ويقع الإنذار من هذا وهذا.

❐ قوله: (﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ).

قال ابن جرير: (﴿وَرَبَّكَ﴾ يا محمد فعظم بعبادته، والرغبة إليه في حاجاتك دون غيره من الآلهة والأنداد).

فالتكبير هو التعظيم كما قال الله تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾

قال الشنقيطي: (﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: عظمه تعظيماً شديداً، ويظهر تعظيم الله في شدة المحافظة على امتثال أمره واجتناب نهيه، والمسارعة إلى كل ما يرضيه: كقوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾، ونحوها من الآيات).

❐ قوله: (﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ).

هذا أحد الأقوال في تفسير هذه الآية، أن الطهارة فيه معنوية، والعرب تسمي الرجل الذي يتعفف ويتنزه عن المعايب والفواحش والمكاسب المحرمة نقي الثياب، وطاهر الثياب، وطيب الأردان

ومنه قول امرئ القيس:

ثِيابُ بَني عَوفٍ طَهارى نَقِيَّةٌ ... وَأَوجُهُهُم عِندَ المَشاهِدِ غُرّان

كما يسمون الفاجر والغادر والفاحش وآكل السحت دنس الثياب، ومنه قول الشاعر فيما أورده ابن قتيبة:

لاهُمَّ إن عامر بن جهم ... أوذمَ حجاً في ثيابٍ دُسْمِ

أوذم: أي عزم وأوجب.

والثياب الدسم هي المتسخة.

وقد روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال: لا تلبسها على معصية ولا على غدرة، ثم أنشد قول غيلان الثقفي:

وإنـــي بحمـــد الله لا ثـــوب فـــاجر لبســـت ولا مـــن غـــدرة أتقنـــع

والمقصود أن تطهير الثياب يراد به تطهير النفس من النجاسات المعنوية، وأشدها الشرك.

❐ قوله: (﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ **الرُّجْزُ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا وَأَهْلِهَا، وَالبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا، وَعَدَاوَتُها وَأَهْلِهَا، وَفِرَاقُهَا وَأَهْلِهَا**).

والرّجز: الأوثان، تضم الراء وتكسر، وهما قراءتان.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾

قال ابن المبارك اليزيدي: (الرجز والرجس واحد).

وقد قيل في اشتقاق هذه العبارة أن هذا الأصل الذي هو الراء والجيم والزاي (ر ج ز) يفيد الاضطراب، ويفيد المهانة أيضا، فيه معنى الاضطراب وفيه معنى الامتهان، لأن أصل الرجز في اللغة هو داءٌ يصيب أعجاز الإبل فتضطرب منه أي: تتحرك حركة مضطربة

قال ابن فارس: (الراء والجيم والزاء أصلٌ يدلُّ على اضطرابٍ. من ذلك الرّجزُ: داءٌ يصيبُ الإبلَ في أعجازِها، فإذا ثارت النّاقةُ ارتعشَتْ فَخِذاها.

ومن هذا اشتقاق الرَّجَزِ من الشّعر؛ لأنه مقطوع مضطرب).

والشرك فيه اضطراب؛ لأنه على غير قرار ولا يستند لحجة ولا يطمئن قلب صاحبه، بل هو مضطرب في اعتقاده، مضطرب في سلوكه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾

وقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

وفيه أيضاً معنى الامتهان: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾

ولا يسلم العبد من هذا الاضطراب والامتهان إلا بالتوحيد.
فإنه بالتوحيد يتطهر ويزكو ويطمئن، فيكون طيباً مباركاً ثابتاً على يقين وبينة من أمره، يمشي سوياً على صراط مستقيم.

❐ قوله: (أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ). أي من بعثته، مكث عشر سنين ودعوته إلى التوحيد ونبذ الشرك، قبل أن تفرض الصلاة والزكاة والصيام والحج وكثير من أحكام العبادات والمعاملات.
وهذا يدل على أهمية التوحيد، وأهمية الدعوة إليه، وأنه أصل الدين، وأولى ما يعتنى به.

❐ قوله: (وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ).
أي وبعد عشر سنين من البعثة عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء كما في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
وفرضت عليه وعلى المسلمين الصلوات الخمس، وهي خمس في العدد وخمسون في الأجر.

❐ قوله: (وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ).
يقصد صلى الصلوات الخمس، وإلا فالنبي صلى الله عليه وسلم قد فرض عليه قيام الليل لما نزلت سورة المزمل ثم نسخ هذا الإيجاب.
وتأريخ فرض الصلوات الخمس مختلف فيه بين أهل العلم حتى ذكر ابن حجر أن في هذه المسألة نحو عشرة أقوال لأهل العلم.
لكن **أشهرها ثلاثة أقوال:**
القول الأول: أنه قبل الهجرة بنحو سنة، وهذا قول ابن سعد في الطبقات وقول إبراهيم الحربي وابن حزم وجماعة من أهل العلم، ومنهم من يزيد أشهراً وينقص أشهراً.
القول الثاني: أنه قبل الهجرة بثلاث سنين، وهذا القول حكاه ابن حجر عن ابن الأثير، وقال به ابن قدامة في المغني، قال ابن رجب: (وهو أشهَر).

القول الثالث: أنه بعد البعثة بخمس سنين، وهو قول الزهري، ورجحه النووي.

والمسألة بحاجة إلى مزيد بحث، والله تعالى أعلم.

❐ قوله: **(وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالهِجْرَةِ إِلى المَدِينَةِ)**.

أي بعد ثلاثة عشرة سنة، كما دل عليه حديث ابن عباس في صحيح البخاري وغيره، وقد تقدم ذكره.

هذا والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.